مراجعة في أدب المغرب العربي

بقلم أنور الجندي

في السنوات الاخيرة تحررت اجزاء الشمال الافريقي من الاستعمار ، وبدأت تستعيد كيانها الفكري والثقافي ،وتعود من جديد للارتباط بالشرق العربي مرة اخرى بعد عزلة طالت اكثر من مائة وثلاثين عاما . وهي « عزلة » وهمية حاول الاستعمار فيها ان يفصل هذا الجزء من الوطن العربي ليصنعه على نحو يحول بينه وبين الالتقاء في الاهداف والغايات . فكان ان وضع سدا بين وصول الثقافة والفكر العربي الذي تفاعلت فيه مصر وسوريا ولبنان والعراق والحجاز ،والسودان وبين هذه المنطقة ، غير ان هذه السدود في الواقع لم تحل دون التقاء المغرب العربي بالمشرق العربي ، فقد تم اللقاء من فوق الاسلاك الشائكة ومن ورائها ، ولم تقع العزلة كما تصورها الاستعمار ، فقد ظل المغرب ينظر الى المشرق ويتابعه في تطوره ويرقب ادبه ، وثقافته وفكره وتعليمه ،وصحافته على نحو دقيق ، وكان في صحفه وكتاباته يناقش كل فكرة وينقل كل راي ويحاول ان يجري معه على خط ،واحد .

حقا ، لقد كانت النهضة الفكرية ، في مصر والشام والعراق سابقة سبقا كبيرا في مراحلها عن اقطار المغرب العرب « ليبيا وتونس والجزائر ومراكش » وقد حققت مصر والعراق استقلالها في الثلاثينيات وسوريا ولبنان في الخمسينيات ، غير انها كانت تقاسي من النفوذ الاجنبي كثيرا ، اما في المغرب فقد كان الامر مختلفا كل الاختلاف . لقد سقطت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠ وحاول الاستعمار منذ اليوم الاول ان يقرر انها جزء من فرنسا او انها فرنسا الجنوبية كما سقطت تونس عام ١٨٨١ .

اما مراكش وليبيا فقد سقطتا في العشرينيات من هذا القرن وكان الاستعمار الفرنسي يحاول في الاقطار الثلاثة « تونس والجزائر ومراكش » خططا مختلفة في اساليبها متفقة في اهدافها ترمي الى القضاء على اللغة العربية والتراث العربي والاسلام على نحو عنيف ، استطاع ان يحقق بعض نتائج في الجزائر حيث قضى على اللسان العربي في مناهج التعليم وخرج جيلا من الذين يجهلون لغتهم الاصلية ولولا جهود عبد الحميد بن باديس بمدارسه الثلاثمئة لكان الامر اشد نكرا .

ولقد واجه المغرب العربي مؤامرات فكرية متعددة غاية في العنف غير ان صلابة ايمانه بالشخصية العربية ومقوماتها وعمق الفهم لوسائل المقاومة قد مكنه من العمل في ميدان الثقافة عن طريق فتح المدارس العربية ،وانشاء الصحف مما قضى على هذه المؤامرات بالفشل .

ولقد يلمس المراجع لهذه الفترة ان المغرب العربي كان ينظر الى الشرق دائما ويتطلع الى مصر والشام والعراق ويراقب كل تطوراته ، ويكرم اعلامه وشعراءه ونبغاءه ويتجاوب مع احداثه وازماته .

اما المشرق فقد كان مشغولا عن المغرب الى حد كبير فبين عشرات الابحاث والدراسات التي تناولتها الصحف والمجلات في خلال تلك الفترة قل ان تجد بحثا يعنى بقضايا المغرب الفكرية عناية لها طابع متجرد، واعني بهذا ان صحفنا كانت تنشر فعلا عشرات البرقيات ،والمقالات عن قضايا المغرب السياسية ولكنها كلها بلا استثناء لا تحمل وجهة نظر الامة ولا تمثل روحها . ذلك ان هذه الصحف كانت تعمل في الاغلب لدى النفوذ الذي يحكم المغرب ، حتى لقد كان عبد الكريم الخطابي والثوار الذين يقاتلون معه يسمون بنظر هذه الصحف « العصاة» .

اما قضايا الفكر واللغة العربية والتعليم والثقافة فكانت تتناول من وجهة نظر المستشرقين والمقيم الفرنسي، حتى ليندر ان تجد في المقتطف والهلال في هذه الفترة ابحاثا لها طابع وطني . فاذا عرض لقضية « البربر والعرب » تناولها الباحثون على النحو الذي يزلزل الوحدة بين ابناء الوطن الواحد ويحاول خلق الفوارق الضخمة بين العنصرين الممتزجين منذ الوف السنين .

اذن فتقصير المشرق العربي امام المغرب العربي واضح كل الوضوح ، فبينما تفتح صحف تونس او الجزائر او مراكش في هذه الفترة فترى كل ما في المشرق من قضايا وابحاث فانك لا تجد مثل ذلك في صحف مصر او العالم العربي الا على النحو المنحرف الذي كان يفرض على هذه الصحف .

وقد استثني من ذلك بعض صحف مصر بين الحربين كالبلاغ وكوكب الشرق التي عنيت على نحو اوسع باخبار المغرب العربي غير انها كانت عناية بالامور السياسية وحدها .

وربما كان اتجاه الصحف في العالم العربي الى الاقليمية في الاغلب هو مصدر هذا القصور، او كانت غلبة النفوذ الثقافي الفرنسي على بعض بلدان المشرق العربي وصحفه سببا في هذا التقصير ، الا انني اعتقد اننا اليوم خليقون بان نعترف باننا كنا مقصرين كل التقصير ، وانه قد آن الاوان لنواجه ادب المغرب العربي في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش مواجهة صريحة واضحة على نحو شامل عميق.

ولقد حاولنا منذ عام ١٩٥٩ ان نعمل شيئا في هذا السبيل عندما اخذنا في دراسة الادب العربي المعاصر على نحو موحد شامل للامة العربية كلها (١).

ولقد اتيح لنا ان نتلفت بعناية وشغف واستمرار خلال هذه السنوات الخمس الى ادب المغرب العربي ونتعرف على انتاجه واثاره واعلامه ، ونقرأ عديدا من صحفه وكتبه ومؤلفاته ونشراته في محاولة خصبة لمراجعة شاملة لادب المغرب العربي المعاصر تكشف عن مدى التطور الذي حققه في معركة المقاومة والتجمع والحرية والوحدة.

ولعل ابرز مظاهر الادب العربي المعاصر اليوم ـ بعد ان تحققت دعوته الى الحرية ـ هو بعث التراث العربي المغربي المدفون من مخطوطات واعمال ودراسات لاعلام الوطن وادبائه وادبه ، يبدو ذلك واضحا في اعمال « علي مصطفى المصراتي » في ليبيا و « عبد الله كنون » في المغرب و « ابو القاسم كرو » في تونس .

وقريبا سنرى علما واعلاما يحملون لواء هذه الدعوة في الجزائر .

ذلك ان معركة التحرير الممتدة التي لم تنته الا في السنوات الاخيرة في المغرب العربي قد حالت دون العمل الادبي سنوات وسنوات وكانت هجمات الاستعمار تقضي على التراث القديم ، وتنشره هنا وهناك ، فمضت السنوات دون ان يجمع او ينسق .

هذا فضلا عن ان تاريخ المغرب العربي لم يكتب منذ مائة وثلاثين عاما على نحو صحيح ، فقد كان يكتبه المؤرخون الفرنسيون ويدسون فيه سمومهم ويشحنونه بالاكاذيب والروايات المغلوطة التي يهدفون بها الى تحطيم معنوية الامة وتمزيق وحدتها ..

لذلك نرى « محمد علي دبوز » احد اساتذة معهد الحياة في جنوب الجزائر يعد في القاهرة الان اول دراسة عن تاريخ المغرب العربي الكبير وهو عمل ضخم يتطلب مراجعات لا حد لها وتصحيحات ضافية لكل اغاليط المستشرقين واخطاء الكتاب الذين وضعوا مؤلفاتهم في ظل الاحتلال الفرنسي .

اما « على مصطفى المصراتي » فهو منذ عشر سنوات تقريبا يحاول ان يمسح الادب العربي في ليبيا فيكتب عن « اعلام من طرابلس » و « لمحات ادبية عن ليبيا » ودراسة عن « ابراهيم الاسطى عمر » شاعر ليبيا و « غومه فارس الصحراء » « وابو قشه الصحفي الليبي » و « صحافة ليبيا في نصف قرن » وله دراسات عن الامثال والادب الشعبي في ليبيا .

وهي محاولة لكشف الجوانب الغامضة في التاريخ والادب والفكر الليبي المعاصر التي اوشكت ان تضيع في ظل الاحداث القاسية التي واجهتها ليبيا في معركتها مع الاستعمار ، فقد ضاعت معظم الاثار الادبية وانشغل اكثر الشباب في معارك المقاومة ومنع الاستعمار وصول الصحف والكتب من مختلف انحاء العالم العربي اليه رغبة في تعميق نطاق العزلة .

وفي ظل المعركة الوطنية السياسية ذهبت اكثر الاثار الادبية والمؤلفات التي كتبها اعلام الفكر والثقافة.

وان انتاج الادباء الذين ظهروا في درنة وبني غازي وطرابلس في هذه الفترة من اواخر القرن الماضي حتى منتصف هذا القرن قد ضاعت ومن هنا تبدو اهمية العمل الذي يقوم به «علي مصطفى المصراتي » الان في محاولاته المتصلة .

وهو يحاول في قصته « غومه ـ فارس الصحراء » الكشف عن جوانب التاريخ الليبي الذي عاش في صورة الاساطير وتحويله الى تاريخ واضح المعالم . ففي هذه القصة يرسم صورة فرسان ليبيا الذين كانوا يصدون كل تيار اجنبي يصل الى شواطيء البلاد ، عندما صدوا الاسبان والمالطيين والفرنسيين والطليان عن شواطئهم ومعارك الفرسان المغاوير الحافلة بالبطولة ومن هؤلاء غومه المحمودي ، وسيف النصر وابن مطروح .

وقد جمع ذلك من القصص والاسمار التي كانت ترويها الامهات وحاول ان يرده الى التاريخ . يقول « نود ان نزيح تراب الاهمال الذي غطى على هذا الفارس، ونخرجه من بين الانقاض واكوام التقارير واكداس المراسلات من بين عشرات الوثائق المهترئة التي انهكها الاهمال ودفنت في قاع سحيق »

وهكذا تجري المحاولة لتنقل الدراسات الشعبية الى دراسات تاريخية لها اسس علمية واضحة .

وعمل «عبد الله كنون » يجري في نفس الاتجاه وعلى نحو اخر ، فان هذا العلامة الباحث يعمل على الكشف عن النبوغ المغربي في الادب العربي في كتاب ضخم صدر حديثا في ثلاثة اجزاء وشمل عشرات من اعلام الشعر في الادب العربي ، وله كتاب « ذكريات مشاهير المغرب » في اجزائه التي بلغت الثلاثين . وفي مقدمة اسماء الاعلام ابو بكر بن شيرين ، وابن عبدربه المكناس ، واحمد بن شعيب الجزنابي ، وابن الونان وابن غازي وعثمان السلالجي والامير سليمان الموحد وعبد العزيز المازوزي ومالك بن المرحل وميمون الخطابي .

وقد اشار العلام كنون الى ان اعماله هذه محاولة لاعطاء صورة عن المجهود الكبير الذي بذله المغرب في سبيل اثبات شخصيته والمحافظة على كيانه امام المؤثرات القوية التي حاولت مرارا ان تمحوه من صحيفة الوجود .

ويعطينا الوزير المراكشي عبد الله كنون بمؤلفاته نافذة على الحركة الادبية بالمغرب في امثال « التعاشيب ـ خل وبقل ـ ـ واحة الفكر » .

وقد صور ان معالم الادب العربي المغربي المعاصر تتمثل في :

- رابطة الوحدة بين مراكش وتونس والجزائر
- قوام الادب : الاسلام والوطن والحرية .
- الامجاد القديمة المتصلة بتاريخ المغرب العربي والاندلس .

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

(١) تناولنا هذا الموضوع في كتابينا « أدب المقاومة والتجمع والوحدة » و « النثر العربي في مائة عام » .

● مقاومة اتجاه المستعمر ضدالقضاء على اللغة العربية والاسلام او تمزيق وحدة المغرب بدعوة البربر والعرب .

وقد لاحظت في مراجعات متعددة في صحف المغرب ان بعث الاثار الفكرية القديمة وتجديد عرضها وبحثها وربط المغرب كله وربط المغرب بالمشرق في مجال الامجاد العربية والاسلامية جانب هام من جوانب النهضة الفكرية اليوم.

ويحرص كتاب المغرب المعاصرون على اعادة عرض الوقائع الهامة الضخمة في تاريخهم باسلوب ادبي جديد .

ويشيدكتاب المغرب بامجاد العرب في الشمال الافريقي وللاندلس في الفكر المغربي العربي اهمية فلسطين والاسكندرونة .

وفي تونس نجد الاستاذ « ابو القاسم كرو » يحاول ان يعطي هذا الجانب من تاريخ تونس العربي بالكشف عن الجوانب الهامة في ثقافته بما يظهر في مؤلفاته عن أبي القاسم الشابي وابن خلدون والطاهر الحداد محرر المراة في تونس وخير الدين التونسي .

وقد دعا كرو في مؤلفاته المتعددة الى الاهتمام بهذا « النوع الخطير الذي يحيط بتاريخنا وادبنا وتعليمنا » ويرى أنذلك تاكيد «لحبنا لبلادنا اولا ولامتنا العربية وتاريخها وادبها ومستقبلها من الاهتمام بالمغرب كالمشرق» ونعي كرو على اهتمامنا بالغربيين دون الشرقيين وبالقدامى دون المعاصرين .. وقد حوت سلسلة كتاب الشعب الذي اصدره مجموعة نافعة من الدراسات عن الصحراء الغربية « لمحمد مبارك الميلي » و « أثار المغرب العربي « لسليمان مصطفى زبيس »

وهي في مجموع اجزائها تستهدف عملية اعادة مسح التراث العربي التونسي من جديد .

فاذا اضفنا الى هذه الدراساتالفلسفية الضخمة التي قدمها الفيلسوف الجزائري « مالك بن نبي » عن الامة العربية في معركتها مع الاستعمار الثقافي من خلال تجربة الجزائر « وقد بلغت حتىالان اكثرمن عشرين كتابا » استطعنا ان ننظر بعين التقدير الى العمل الكبير الذيبدا فعلا في المغرب العربي والذي يسترعي انظار المشرق العربي والذي نحاول اليوم ان ننظر فيه لنقضي دينا طالما حمله اياها اخواننا في الاقطارالعربية الاربعة .

ولست استطيع انامضي دون ان اذكر اسماء نابهة في هذه الاجزاء العربية تعمل وتتيح دراسات بارعة جديرة بالتقدير والعرض والنقد امثال علال الفاسي وعبد المجيد بن حلوية وعبد الكريم غلاب ومحمد الوزاني ومحمد ابن تاويت ومحمد المختار السنوسي والحسن السايح وعبد القادر الصحراوي في المغرب ومحجوب بن ميلاد وعثمان الكعاك والطاهر الخميري ومحمود المسعدي ومحمد الحليوى ومحمد مزالي وحسن حسني عبد الوهاب وعبد الله شريط وزيدالعابدين السنوسي في تونس .

ومن الكاتبات زعيمة الباروني في ليبيا اول قصصية ليبيةوباحثة الحاضرة في المغرب ومقيدة الشاهد وفتاة تطوان وامنة اللوة الالفي .

وبعد : فان الادبالعربي في المغرب العربي جدير بان يعرض عرضا شاملا تحلل فيه جوانبه وترصد تطوراته ومواقفه في حلقات متوالية .

القاهرة — **انور الجندي**

بين تذكار اتى

للشاعر « جونتر أيش » *

ترجمها عن الالمانيه الدكتور ميشال جحا

* * *

صهريج القمر الابيض
منهوك فارغ
والنوم بدون النجوم
صعب جدا .

غيوم ، قوارب ترسو
على الجبين . حلم وريح
تقذف الموتى الى الارض ، تمطر
الايام الواضحة بالرمل

وتعلق على شواطئي
مع الخشب والعاج ،
والسفن ، والصواري
ذكريات ، صغيرة لا تفهم .

ليلة خفيفة الزرقة وجزر الرياح ،
شجرة تنحني امام الخريف ،
تلفني بالاوراق وبلحاها
وبدمها الذي يجري ويندفع .

والصيف ، والجبال ، مساكن النباتات ،
انعكاس ضوء الثلج ،
كان هذا — الا يجري مع
نبات الماء الى العدم ؟

استيقظ . في السجاجيد
حيكت اشباح
وكلمات من الف صلاة .
خرافة ، من منا يعيش .

وعندما تتعب الذكريات احيانا ،
اشعر ،انه يجب ان يكون
ان وجهك المظلل دائما ،
خالد ومن حجر .

---

* من مجموعة « اشعار » ١٩٣٠ .